المعقِد الأوَّل

تطهير وعاء العلم

وهو القلب؛ فإنَّ لكل مطلوبٍ وعاءً، **وإنَّ وعاء العلم القلب، ووسخ الوعاء يُعكِّره ويُغيِّر ما فيه**، وبحسب طهارة القلب يدخله العلم، وإذا ٱزدادت طهارته ٱزدادت قابليَّته للعلم، **ومَثَلُ العلم في القلب كنور المصباح، إن صفا زجاجُه شعَّت أنواره، وإن لطَّخته الأوساخ كَسَفت أنواره.**

فمن أراد حيازة العلم فليُزيِّن باطنه، ويُطهِّرْ قلبه من نجاسته؛ **فالعلم جوهرٌ لطيفٌ، لا يَصلُح إلا للقلب النَّظيف.**

وطهارة القلب ترجع إلىٰ أصلين عظيمين:

أحدهما: طهارته من نجاسة الشُّبهات.

والآخر: طهارته من نجاسة الشَّهوات.

ولِمَا لطهارة القلب من شأنٍ عظيم، أُمِر بها النَّبيُّ ﷺ في أوَّل ما أُمِر؛ في قوله تعالىٰ في سورة المدَّثِّر: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾

في قول من يُفسِّر الثِّياب بالباطن، وهو قولٌ حسنٌ، له مأخذٌ صحيحٌ.

وإذا كنت تستحيي من نظر مخلوقٍ مثلك إلىٰ وسخ ثوبك، فاستحي من نظر الله إلىٰ قلبك، وفيه إحَنٌ وبلايا، وذنوبٌ وخطايا.

قال مسلم بن الحجَّاج: حدثنا عمرو النَّاقد، حدثنا كثير ابن هشام، حدثنا جعفر بن بُرقان، عن يزيدَ الأصمِّ، عن أبي هريرةَ ﷺ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ الله لا ينظر إلىٰ صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم**».

واحذرْ كمائنَ نفسك اللَّاتي متىٰ
خرجت عليك كُسِرْتَ كسرَ مُهانِ

من طهَّر قلبه فيه العلم حَلَّ، ومن لم يرفع منه نجاسته وَدَعَه العلمُ وارتحل.

وإذا تصفَّحت أحوال طائفةٍ من طلَّاب العلم في هٰذا المعقِد، رأيت خللًا بيِّنًا، فأين تعظيمُ العلم من امرئٍ تغدو الشَّهوات والشُّبهات في قلبه وتروح؟!

تدعوه صورةٌ محرَّمةٌ، وتستهويه مقالةٌ مجرِمةٌ، حَشْوُه المنكرات، والتَّلذُّذُ بالمحرمات، فيه غِلٌّ وفسادٌ، وحسدٌ وعنادٌ، ونفاقٌ وشقاقٌ، أنَّىٰ لهٰؤلاء وللعلم؟! ما هم منه، ولا هو إليهم.

قال سهل بن عبد الله ـ رحمه الله ـ: «حرامٌ علىٰ قلبٍ أن يدخله النُّور، وفيه شيءٌ ممَّا يكره الله ﷻ».

المعقِد الثَّاني

إخلاص النيَّة فيه

فإنَّ إخلاصَ الأعمال أساسُ قَبولها، وسُلَّمُ وصولها؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البيِّنة: الآية ٥].

وقال البخاريُّ في «الجامع المسند الصَّحيح»، ومسلمٌ في «المسند الصَّحيح» ـ واللَّفظ للبخاريِّ ـ: حدَّثنا عبد الله بن مسلمة، قال: أخبرنا مالكٌ، عن يحيىٰ بن سعيد، عن محمَّد بن إبراهيم، عن علقمةَ، عن عمرَ ﷺ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**الأعمال بالنِّيَّة، ولكل ٱمرئٍ ما نوىٰ**».

وما سبَق مَن سبَق ولا وصَل مَن وصَل من السَّلف الصَّالحين، إلا بالإخلاص لله ربِّ العالمين.

قال أبو بكرٍ المرُّوذيُّ ـ رحمه الله ـ: سمعت رجلًا يقول لأبي عبد الله ـ يعني أحمدَ ابن حنبلٍ ـ وذكر له الصِّدق والإخلاص؛ فقال أبو عبد الله: «بهٰذا ٱرتفع القوم».

وإنَّما يَنال المرءُ العلمَ علىٰ قدر إخلاصه.

والإخلاص في العلم يقوم علىٰ أربعة أُصولٍ، بها تتحقَّق نيَّة العلم للمتعلِّم إذا قصدها:

الأوَّل: رفعُ الجهل عن نفسه؛ بتعريفها ما عليها من العبوديَّات، وإيقافها علىٰ مقاصد الأمر والنَّهي.

الثَّاني: رفع الجهل عن الخلق؛ بتعليمهم وإرشادهم لما فيه صلاح دنياهم وآخرتهم.

الثَّالث: إحياء العلم، وحفظه من الضَّياع.

الرَّابع: العمل بالعلم.

فالعلم شجرةٌ، والعمل ثمرةٌ، وإنَّما يُراد العلم للعمل.

ولقد كان السَّلف ـ رحمهم الله ـ يخافون فوات الإخلاص في طلبهم العلم، فيتورَّعون عن أدِّعائه، لا أنَّهم لم يحقِّقوه في قلوبهم.

فهشام الدَّسْتوائيُّ ـ رحمه الله ـ يقول: «والله، ما أستطيع أن أقول: إنِّي ذهبت يومًا أطلب الحديثَ أُريد به وجه الله ﷻ».

وسئل الإمامُ أحمدُ: هل طلبت العلم لله؟ فقال: «لله! عزيزٌ، ولكنَّه شيءٌ حُبِّب إليَّ فطلبته».

ومن ضيَّع الإخلاص فاته علمٌ كثيرٌ، وخيرٌ وفيرٌ.

وينبغي لقاصد السَّلامة أن يتفقَّد هٰذا الأصل ـ وهو الإخلاص ـ في أموره كلِّها، دقيقِها وجليلِها، سِرِّها وعَلَنِها.

ويَحمِلُ علىٰ هٰذا التَّفقُّدِ شدَّةُ معالجة النِّيَّة.

قال سفيان الثَّوريُّ ـ رحمه الله ـ: «ما عالجت شيئًا أشدَّ عليَّ من نِيَّتي؛ لأنَّها تتقلَّب عليَّ».

بل قال سليمان الهاشميُّ ـ رحمه الله ـ: «ربما أُحدِّث بحديثٍ واحدٍ ولي نِيَّةٌ، فإذا أتيت علىٰ بعضه تغيَّرت نيَّتي، فإذا الحديث الواحد يحتاج إلىٰ نيَّاتٍ».